الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الأوثـان الجـديـدة والأصنـام الحـديثـة في جـاهليـة القـرن العـشرين

كان سيد قطب قد أطلق في كتابه "معالم في الطريق" عام ١٩٦٤ على القرن العشرين بأنه قرن الجاهلية "جاهلية القرن العشرين"، وربما أيضاً على القرن الواحد والعشرين، فيما لو كُتبت له الحياة. وكانت رحلته إلى أمريكا ١٩٤٨ في بعثة تعليمية. باعتباره موظفاً في وزارة التعليم. لمدة سنتين، وراء كتابة هذا الكتاب. وقد وضحت صورة أمريكا والحضارة الغربية بصراحة أكثر وبطريقة مباشرة في خطاب سيد قطب الديني في الكتاب الذي أصدره صلاح الخالدي فيما بعد، بعنوان "أمريكا من الداخل بمنظار سيد قطب" ,١٩٨٥ ثم جاء محمد قطب شقيق سيد قطب، ووسّع من مفهوم "جاهلية القرن العشرين"، الذي طرحه سيد قطب، والذي أخذه عن استاذه الباكستاني أبي الأعلى المودودي، فكتب محمد قطب كتابه الشهير "جاهلية القرن العشرين" عام ١٩٩٣ (طُبع أكثر من ١٥ طبعة)، والذي خصصه بالكامل لمناقشة هذه الجاهلية.

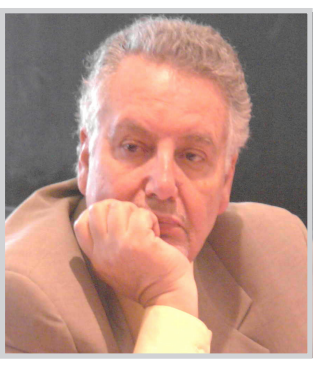

د. شـاكـر الـنـابلـسي
كاتب اردني. امريكا

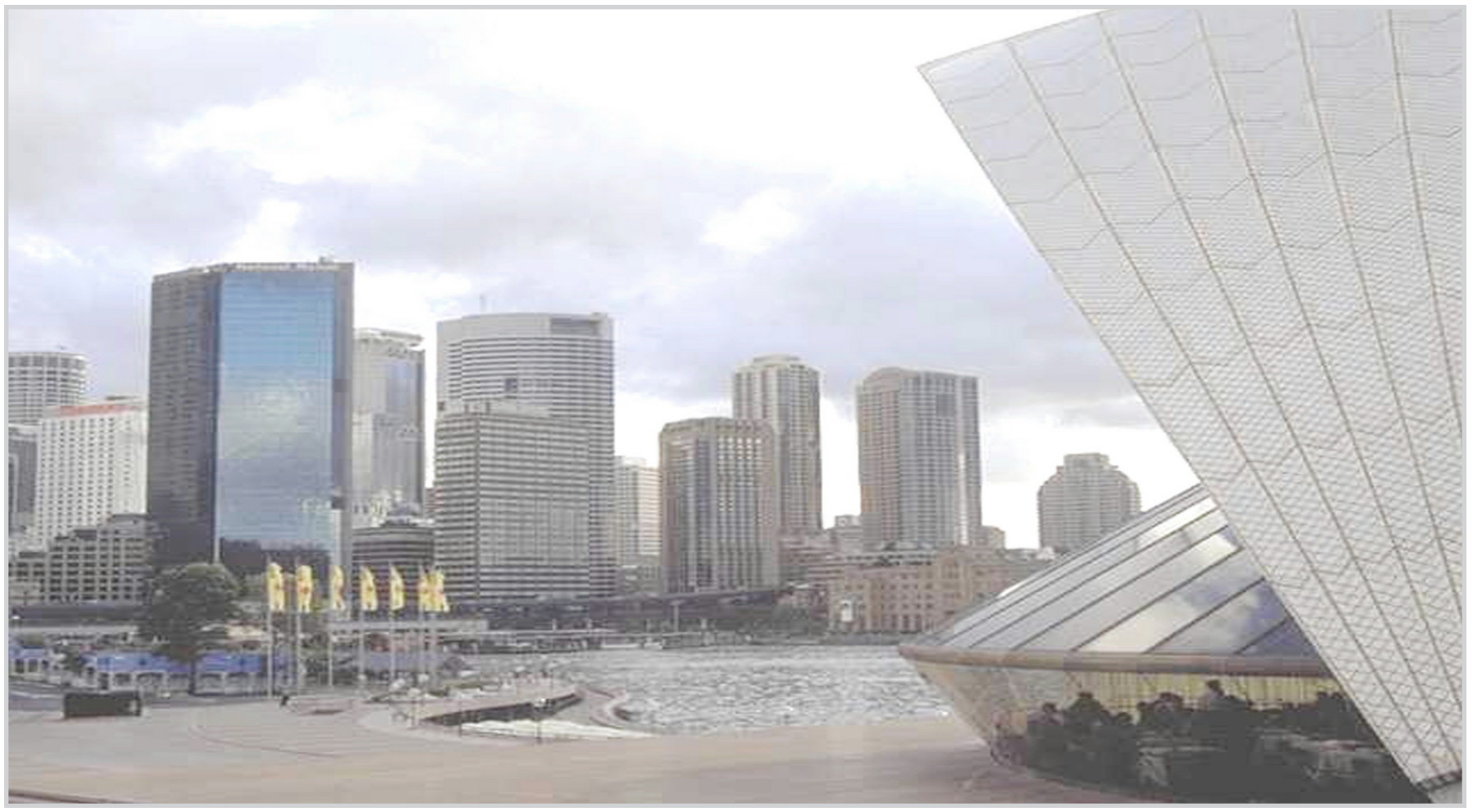

وقد كرّس محمد قطب القطيعة الجذرية مع العالم بأسره في كتابه الشهير ذاك، الذي أكد فيه أن العالم بأسره بنظمه وأفكاره وقيمه جاهلي، لا ينسجم مع قيم الاسلام. وقد اعتُبرت العولمة من الأوثان الجديدة والأصنام الحديثة (الأوثان هي ما كان مصنوعاً من الخشب، والأصنام ما كان مصنوعاً من الحجر أو الحديد)، كما قال مرة الكاتب المصري المعروف مصطفى محمود، ولو لم تكن العولمة قد برزت في الستينيات في العالم العربي بشكل واضح كما هي الآن، عندما أصدر سيد قطب كتابه "معالم في الطريق"، أو في بداية التسعينيات، عندما أصدر محمد قطب كتابه "جاهلية القرن العشرين".

ما هي جاهلية القرن العشرين؟

يُعرّف محمد قطب الجاهلية في مقدمة كتابه "جاهلية القرن العشرين" على النحو التالي:

"الطيبون يحصرون مظاهر الجاهلية فى الشرك الساذج، والوثنية البدائية، وأخذ الثأر، والمفاسد الخلقية، التى كانت سارية فى البيئة العربية. أى أنهم يأخذون مظاهر الجاهلية العربية على أنها هي " الجاهلية" ذاتها. ومن ثم يحصرونها فى هذه الصورة المحدودة، فى هذه الفترة المعينة من التاريخ، فى هذه البقعة من الأرض، فى الجزيرة العربية. ويظنون- من ثم- أنها مضت إلى غير رجعة فى الزمان أو المكان!

والخبيثون يظنون أن "الجاهلية" هى مقابل ما يسمى العلم، أو الحضارة، أو التقدم المادى، أو القيم الفكرية أو الاجتماعية أو السياسية أوالإنسانية. ومن ثم يجهدون أنفسهم إجهادا- مدفوعين بتلك الدوافع غير الإسلامية التى نوه بها رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم- لكى يثبتوا أن العرب لم يكونوا جهلاء، فقد كانوا يعرفون بعض المعارف. ولا متأخرين، فقد كانوا مُلمين بشئ ما يسمونه الحضارة، وشئ من المدنية. ولا هم بخاوين من القيم. فقد كان لديهم من الفضائل كالكرم، والشجاعة، إغاثة الملهوف، وبذل النفس فى سبيل الشرف، أو النخوة، أو الكرامة، أو ما شابه ذلك من الأمور. ومن ثم فوصف القرآن لهم بالجاهلية ليس حقيقة تاريخية! ومن ثم كذلك، فالقرن العشرون فى نظرهم هو قمة الارتفاع البشرى الذى يمكن أن يحلم به الإنسان.

وهؤلاء وأولئك كما قلنا لا يدركون معنى"الجاهلية" كما هو فى واقع الأمر، وكما عناه القرآن.

ليست الجاهلية "صورة" معينة محدودة كما يتصورها الطيبون الذين يرون أنها فترة تاريخية مضت إلى غير رجوع. إنما هى"جوهر" معين، يمكن أن يتخذ صوراً شتى، بحسب البيئة والظروف والمكان؛ فتتشابه كلها فى أنها "جاهلية" وإن اختلفت مظاهرها كل الاختلاف.

وليست هى المقابل لما يُسمى بالعلم، والمعرفة، والحضارة، والمدنية، والتقدم المادى، والقيم الفكرية والاجتماعية والسياسية والإنسانية على إطلاقها، كما يتصورها الخبيثون، سواء بالنسبة للجاهلية العربية أو بالنسبة للقرن العشرين. إنما الجاهلية- كما عناها القرآن وحددها- هى حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمى يرفض الحكم بما أنزل الله ؟أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟(المائدة: ٥٠). هى إذن مقابل معرفة الله، والاهتداء بهدى الله، والحكم بما أنزل الله. وليست مقابل ما يسمى العلم والحضارة المادية ووفرة الإنتاج!

شيء أسوأ من الأوكة

ومن هنا اعتبر الإسلاميون أن العولمة وثن من الأوثان، وصنم من أصنام الجاهلية الجديدة المضللة. وأنها ليست هي الأمركة للعالم الإسلامي، ولكنها شيء أكثر وأكبر من الأمركة وهي الشيطنة، أو عبادة الشيطان الأكبر. ومن هنا فإن الكاتب الإسلامي جلال أحمد أمين، ابن العلامة أحمد أمين صاحب "فجر الإسلام"، و "ظهر الإسلام"، و "ظهر الإسلام"، يعتبر أن "العولمة" لفظ له مزايا أكثر مما نظن. فله مزايا وفوائد عندما يستخدم مع العرب، وفي منطقة الشرق الأوسط. ففي هذه الحالة لا تعني العولمة الانفتاح على العالم الخارجي بسلعه واستثماراته وأفكاره، بل وأيضاً التصالح مع إسرائيل وقبولها كما هي، بل وحتى أكبر مما هي. وإذن فالعولمة ليست "الأمركة"، ولكنها شيء أسوأ من ذلك. (مبعوث العولمة.. أو توماس فريدمان والمثقفون المصريون، ص٤١).

كيف يفهم الإسلاميون العولمة؟

يعتبر بعض الباحثين الإسلاميين كمنير شفيق، أن العولمة ستعني ثقافة واحدة هي الثقافة الأمريكية في طبعتها الحديثة وقيمها التي تجاوزت الثقافة والقيم الأمريكية، التي عرفت منذ ثورة الاستقلال، وحتى وقت قريب. (في الحداثة والخطاب الحداثي، ص٧٤).

ونحن نقول، أن كل خطوة اقتصادية، وكل سوق تُفتح، لا بدّ أن يحمل معه ثقافته. فالسلعة ليست مكوناً عنصرياً فقط، وليست نتاجاً صناعياً فقط، ولكنها نتاج ثقافي أيضاً. وهذا ليس وليد اليوم أو الأمس القريب، ولكنه قانون التجارة التي تحمل معها أينما ذهبت ثقافتها الخاصة، منذ عهد بعيد. فالعرب في القرن الخامس الميلادي عندما جاءوا بالعولمة(الإيلاف)، جلبوا معها تراثها الثقافي وتقاليدها الثقافية. فمن تقاليد العولمة (الإيلاف) العربية مثلاً كان ضمان أداء المهمة مقابل ما يُدفع لثمنها. فحماية خطوط التجارة كان لها ثمن مجدود، فإذا تم خرق هذه الطرق رُدت الرسوم التي دُفعت من أجلها. وكان من أخلاقيات العولمة(الإيلاف) العربية أن الأمن والنظام والطمأنينة كانت تسود بلدان العولمة، وعلى رأسها المجتمع القرشي والمكي.

ويقول فكتور سحاب: "أحاطت قريش إيلافها بمجموعة من العقائد السياسية والدينية التي كان بعضها قائماً قبل الإيلاف كالأشهر الحرم. ونشأ الآخر بعد الإيلاف كالحماسة وهي الأمن للحرم ولأبنائه والذي كانت التجارة متعذرة بدونه" (ضرورة التراث، ص٣٠١). كما تبع العولمة عند العرب تطور علم الجغرافيا والفلك والحساب وغير ذلك. وكلها من ثقافات العولمة. فلكل عولمة ثقافتها.

هل ستفرض العولمة الثقافة الأمريكية؟

ولكننا نعتقد خطأً أن العولمة الآن سابقة على الثقافة الأمريكية. وأن العولمة الأمريكية هي التي ستأتي أولاً، وستفرض علينا فيما بعد الثقافة الأمريكية. في حين أن الثقافة الأمريكية سابقة في العالم العربي على العولمة الأمريكية. ونحن ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومنذ وصول المبشرين الأمريكيين البروتستنت إلى لبنان، وإقامة المدارس والمعاهد والكليات الأمريكية، دخلنا عصر الثقافة الأمريكية. ثم ولجناه أكثر فأكثر في النصف الثاني من القرن العشرين، عندما انسحبت فرنسا وبريطانيا وايطاليا من السوق السياسي والاقتصادي العربي، وعندما بدأت أعداد كبيرة من الطلبة العرب تدرس في أمريكا، ثم بدأت المنتجات الأمريكية تغزو أسواق الشرق الأوسط على كافة المستويات، وتطبع الشباب العربي طعاماً وملبساً وغناءً وفناً وأحلاماً بطابع الحياة الأمريكية طواعية لأنه –على ما يبدو –وجد فيها راحته، من دون تدخل من الأسطول السادس الأمريكي، ومن دون ضغط من الـ س. أي. إيه، أو تهديد من البنتاجون..! وهذا التطبع بالثقافة الأمريكية، ليس قاصراً على الشباب العربي وحده، ولكنه انسحب على جيل الشباب في آسيا وأوروبا أيضاً فيما عُرف بالموجة الأمريكية، التي كانت جزءاً كبيراً من الثقافة الأمريكية، في النصف الثاني من القرن العشرين.

لماذا سيتأخر وصول العولمة للعالم العربي؟

من ناحية أخرى، فإن وصول العولمة إلى العالم العربي سيكون متأخراً جداً، لعدم توفر التربة الصالحة والمناسبة لزراعة العولمة، ذات الآليات الصعبة والشروط القاسية، والتطبيق الأصعب، وتقول ليلى شرف، إن العولمة "تأتينا ونحن في أسوأ ظروف وفي أقل حالات الاستعداد للاستفادة منها" (العرب والعولمة، ص ٣٥٧). ويقول بعض الباحثين الأمريكيين –وهم أهل العولمة الحديثة – من أن العولمة، وخاصة العولمة الثقافية - التي نخشى منها نحن العرب ونفزع ونصيح - عملية صعبة.

وهم منطقيون في ذلك، ويعللون صعوبة العولمة، بالأسباب التالية:

١, التفاوت الثقافي وتباعد المسافات الثقافية Cultural Distance بين الشعوب.

٢, اختلاف تفسير الظواهر والآليات الثقافية من بلد لآخر تبعاً لمستوى الوعي ومرونة الثقافة المحلية في قبول الآخر. فالرئيس الأمريكي عندما يخطب، يذاع خطابه في كافة أنحاء العالم. ولكن لا تفسير واحداً لخطاب الرئيس، بل إن كل بلد يفسره بمعان مختلفة عن الأخرى تبعاً لمستوياتها الثقافية. كذلك، فإن الثقافة المحلية الأمريكية تُفسر في بعض بلدان العالم من قبل الشباب على أنها "تي شيرت" ولعبة البيسبول، وموسيقى الجاز، أو الراب، أو غيرها. في حين أن هذه الثقافة تُفسر في طهران، وفي الأوساط الإسلامية الأخرى في الخليج العربي، على أنها رجس من عمل الشيطان.

٣, إن تباعد المسافة الثقافية Cultural Distance هذا سيؤدي إلى مقاومة التجانس الثقافي Cultural Homogenization.

4.إن عناصر العولمة الاجتماعية التي تعتمد على الخلط البشري، المتأتي عن طريق الهجرة المتبادلة مقيد ومكبوح بقيود تباعد المسافات الثقافية وبالقوانين التشريعية.

إضافة لهذا كله، فإن الثقافة الأمريكية المعاصرة هي ثقافة التنوع، وليست ثقافة أحادية الجانب. والسبب في ذلك، أن المهاجرين الذين شكلوا هذه الثقافة، جاءوا من كل أنحاء العالم، وساهموا في صنع هذه الثقافة. فالثقافة الأمريكية بالتالي، هي ثقافة كونية في ذاتها، وليست ثقافة قومية، وذلك للأسباب التالية:

١- خروج أمريكا من الحرب العالمية الثانية في وضع هيمنة كاملة، وكان وضعاً آنذاك لا مثيل له في التاريخ. فمنافسوها الصناعيون قد دُمروا في الحرب العالمية الثانية، بينما تضاعف إنتاج أمريكا الصناعي أربع مرات تقريباً خلال سني الحرب. فكانت أغنى دولة في العالم، تملك أكثر من نصف ثروة العالم. وهذا الوضع المالي المتميز، أمكن أمريكا من انتاج وصناعة الثقافة الشعبية Pop Culture التي كانت تتطلب رؤوس أموال ضخمة للتوسع في إنتاجها العالمي. وهذه الثقافة تضم الأغاني، وموسيقى الجاز، والبلو، والراب، والموسيقى الريفية، وغيرها. كما تضم صناعة السينما والأدب الخفيف من روايات ومسرحيات وعروض فنية، وخلاف ذلك.

٢- إن الأمريكيين المنتجين لهذه الثقافة ليسوا بقوميين، ولا ينتسبون لعنصر معين، بقدر ما هم فئات من المهاجرين يشكلون معظم جنسيات العالم المختلفة.

٣- تفوق أمريكا على منافسيها من الدول الأوروبية في إنتاج الثقافة الشعبية، وعلى الأخص في صناعتي الأفلام والموسيقى. وقد تمكنت أمريكا من استغلال قوتها في الإنتاج الفني التلفزيوني وفي الصناعة الترفيهية وشركات الأقمار الصناعية، فدخلت كل بيت على وجه الأرض، وأثّرت في كل فرد.

٤- استطاعت أمريكا أن تعرف ما هي الثقافة المطلوبة لأكبر عدد من الناس، وهي الثقافة الرخيصة، فصنّعتها، وأحالتها إلى صناعة حقيقية، لها ميزانياتها الدعائية الضخمة، ولها استراتيجياتها التسويقية المدروسة، وشبكات توزيعها العالمية، كأي سلعة استراتيجية محتكرة أخرى. وبما أن الشباب في أمريكا وفي العالم أيضاً يمثلون القوة الشرائية الكبرى، فقد التفتت صناعة الثقافة إلى هذا القطاع من المستهلكين المهمين، فأنتجت لهم ثقافة خاصة بهم وبكافة الشباب في العالم، ما دفع هذه الثقافة إلى الازدهار والنمو المطرد، حيث أصبحت تمثل حوالي أربعة بالمائة من الدخل القومي الأمريكي. وأصبحت أمريكا تحتل ١٢ بالمائة من سوق الموسيقا العالمية، في حين أن ألمانيا منبع الموسيقا الكلاسيكية، لم تكن تحتل أكثر ثلاثة بالمائة. ويعلّق عصام نعمان على انتشار الثقافة الأمريكية على هذا النحو، فيقول إن انتشار الثقافة الأمريكية هذا الانتشار الكبير، يعود إلى احتكارها لولاء الفئات الحاكمة في معظم دول الجن، الأمر الذي كفل لها حصصاً كبيرة في الأسواق فضلاً عن تبعية سياسية وأمنية راسخة! (العرب والعولمة، ص٢٦٤).

٥- وهذا التنوع في الثقافة الأمريكية هو الذي سيتيح المجال في العولمة الثقافية غداً لكي يكون التنوع سائداً والتشكيل الكوني غالباً.

هل العولمة شريعة الغاب؟

يرى بعض الباحثين الإسلاميين كمنير شفيق، أن العولمة هي سيطرة الشركات المتعددة الجنسيات وتعديها على الحدود القومية وعلى كل نواحي الحياة. والعالم يريد الحيلولة من دون ذلك، لأن قانون تلك الشركات هو قانون التنافس غير المتكافئ، والذي يسمح للقوي أن يأكل الضعيف بشريعة العولمة. (في الحداثة والخطاب الحداثي، ص٧٤).

ونحن نرى أن الشركات الأمريكية قد غزت أوروبا وجنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية والعالم العربي كذلك . ويتضح هذا من خلال شركات البترول الأمريكية العاملة في العالم العربي، والبنوك الأمريكية، وشركات المقاولات والمحاسبة والإدارة والتأمين الأمريكية وغيرها. وأن هذه الشركات أصبحت من القوة والمكانة المالية العظيمة بحيث استطاعت خمس وعشرون شركة كبرى منها السيطرة على العالم كما قالت "جانيت لو" في كتابها "الامبراطورية السرية". وأن الشركات اليابانية قد غزت هذه المناطق أيضاً بقوتها وضخامتها. و بلغت ضخامة وقوة الشركات اليابانية المالية حداً أكبر من القوة المالية لبعض الدول. فبلغ دخل شركة توشيبا على سبيل المثال في العام ١٩٩٢ ما مقداره ٢٥ بليون دولار، وهو ما يوازي تقريباً الميزانية السنوية للأرجنتين، أو كبلد كالسعودية في ذلك التاريخ. وأقامت مصانع ضخمة في وسط أمريكا نفسها، من دون أن يؤدي ذلك إلى التعدي على الحدود القومية المرتجفة من جراء نفسها، كما هي حال الحدود القومية العربية. كما تم ذلك من دون أن يأكل القوي الضعيف، فيما وصفت العولمة من قبل من لم يفهموها من المتعصبين بأنها شريعة الغاب، وقانون الغاب.

الشركات العابرة للقارات

وينظر بعض الإسلاميين إلى العولمة، على أنها نمط من الحياة أداتها الأساسية الآن الشركات العملاقة متعددة الجنسيات. فمن هذه الشركات العملاقة ما أصبح دخلها السنوي يوازي الدخل السنوي لمجموعة دول. فمبيعات شركة البيتزا الأمريكية (بيتزا دومينو) التي لها شركاء في العالم كله بلغت ٢و٤ بليون دولار في العام ١٩٩١ وهو ما يساوي الميزانية السنوية لكل من دولة السنغال وأوغندا وبوليفيا وآيسلندا مجتمعين.(P 24 Barber, Jihad VS. McWorld, Ben-jamin).وهذه الشركات تمارس العولمة بكفاءة منقطعة النظير. لذا، فالكلام الذي يصور العولمة على أنها عملية تحرر من مختلف صور الاستعباد هو محض خرافة.

العولمة والشمولية الجديدة

إن الغرب الذي ثابر في جهاده عبر نصف قرن أو يزيد ضد الشمولية باعتبارها اتجاهاً معادياً للديمقراطية، يعود لنا بالعولمة التي هي شمولية جديدة، لأنها تنتهي إلى محاولة فرض ثقافة واحدة ونمط وحيد للحياة على الأمم، وتصادر الخيارات الاجتماعية والسياسية. والعولمة أيضاً وهي تبشر بانتهاء عصر الأيديولوجيات، تفسح الطريق إلى أيديولوجيا وحيدة مهيمنة، لا تعترف إلا بثقافة واحدة تنطوي عليها أنماط استهلاك، وإنتاج، وحياة واحدة. وأيديولوجيا العولمة هي أيديولوجيا التقنية والصناعة. ولعل ألطف تعليق هازل لأيديولوجيا العولمة هو ما قاله جورج بول من أن "أيديولوجيا العولمة الآن تسير على أربع عجلات"، إشارة إلى عولمة صناعة السيارات التي أصبحت تُصنع في أكثر من بلد. ومن هنا، فإن الملصق الذي نقرأه على بعض السيارات في بعض البلدان والذي يقول مثلاً "لكي تكون مواطناً صالحاً اشترِ بضاعة من صنع بلدك" لا معنى له الآن.

فأين هي الصناعات الآن التي تصنعها دولة واحدة؟

فالسيارات اليابانية تُصنع في أمريكا وجنوب شرق آسيا. والسيارات الألمانية تجمع في المكسيك والبرازيل وأمريكا.. الخ. ويرمي بعض المثقفين ثقافة العولمة بأنها ثقافة "نهاية التاريخ"، "التي تحاول أن تُجمل وجهها الشائه بقناع مخادع زائف من المصطلحات التي فقدت معناها: ديمقراطية، وحقوق الإنسان، وتعدد سياسي، وتقنية، تجعل حياة الإنسان أسهل وأكرم". (محمد منصور وآخرون، العرب والعولمة، ص,٣٥٥)

فهل ما زلنا نعتبر العولمة صنماً من أصنام جاهلية القرن العشرين، أو وثناً من أوثانها المختلفة؟